منظمة التعاون الإسلامي

التعايش والتعارف في الإسلام

مفاهيم ميسرة

شارك في إعداد الكتاب

نخبة متميزة من العلماء والمثقفين

من مختلف دول العالم الإسلامي

2022

(12)

الارتفاق والسماحة بين الإنسان والبيئة في الإسلام

د. محمَّد النَّاصري *

تُعَدُّ رعاية البيئة والحفاظ عليها وحمايتها من كل أشكال الاعتداء والإفساد، من أعظم المقاصد التي أكد عليها الإسلام قرآناً وسُنَّةً. فكثيرة هي النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الداعية إِلَىٰ الحفاظ عَلَىٰ المحيط الذي يعيش فيه الإنسان، تيسيراً لوظيفة الاستخلاف المنوطة به. ولا شك في أن المواءمة بين الإنسان والبيئة من الشروط الأساسية للقيام بمهة الاستخلاف عَلَىٰ أتم وجه وأكمل صورة. وهي الحقيقة التي أكدتها أحكام الإسلام من خلال إرشادها المتكرر إِلَىٰ الطرق والوسائل الكفيلة بحماية الكون ومكوناته .

في تعريف البيئة :

البيئة هي الإطار الذي يحيا فيه الإنسان مع غيره من الكائنات الحية ، يحصل منها عَلَىٰ مقومات حياته من مأكل وملبس ومسكن ، ويمارس فيها مختلِف علاقاته مع بني البشر ، مثلما تشمل مجموعة من المكونات الحية وغير الحية الدائمة التفاعل بعضها مع بعض مؤثرة ومتأثرة» [1] .

(*) أستاذ الفكر الإسلامي بجامعة السلطان مولاي سليمان بني ملال ، وباحث في الرابطة المحمَّدية للعلماء ، المغرب .

(1) محمَّد فتوحي ، «المشكلات البيئية الكبرىٰ في المغرب ودور التربية في مواجهتها» ، مجلة آفاق تربوية ، البيضاء ، ع 7 ، 1993م ، ص 18 .

وقد عَرَّفها اجتمـاع بلغراد سنة 1975م ، الخاص بالتربية البيئية ، بأن البيئة هي عبارة عن «العلاقات الأساسية القائمة في العالم الطبيعي والفيزيائي وبينه وبين العالم الاجتماعي ـ الاقتصادي الذي من صنع الإنسان [1] . وبهَـٰذَا يتسع مفهوم البيئة ليشمل مختلِف جوانب الحياة الإنسانية البيولوجية والفيزيائية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . ومن خلال هَـٰذَا المفهوم الشامل الواسع للبيئة ، يمكن تقسيم البيئة التي يعيش فيها الإنسان مؤثراً ومتأثراً إلَىٰ قسمين ، هما :

* **البيئة الطبيعية** Environment Natural: التي تتألف من الأرض وما عليها وما حولها ، من الماء والهواء ، وما ينمو عليها من النباتات وضروب الحيوانات وغيرها نمواً ووجوداً طبيعياً سابقاً علَىٰ تدخل الإنسان وتأثيره ، المقصود وغير المقصود في البيئة . كما يقع ضمن نطاق البيئة الطبيعية التربة والمعادن ومصادر الطاقة والأحياء بما فيها الإنسان بكافة صورها ، وهَـٰذِهِ جميعا تمثل الموارد التي أتاحها اللَّـهُ للإنسان ليحصل منها علَىٰ مقومات حياته .

* **البيئة المشَـيَّدة** Man-made Environment : والتي تتألف من المكونات التي أنشأها ساكنو البيئة الطبيعية (الناس) ، وتشمل كل المباني والتجهيزات والمزارع والمشاريع الصناعية والطرق والمواصلات والمطارات والموانئ ، إضافة إلَىٰ مختلِف أشكال النظم الاجتماعية ، من عادات وتقاليد وأعراف وأنمـاط سلوكية وثقافية ومعتقدات ، تنظم العلاقة بين الناس [2].

البيئة في أزمة ، بيئة تنضب:

لـم يعد خافياً أن البيئة التي يعيش فيها الإنسان ، ويستمد منها كل مقومات حياته ، أصبحت تتعرض للانتهاك والاستنزاف ، مما أدى إلَىٰ ظهور مشكلات بيئية تهدد سلامة

(1) نفسه ، ص 18 .

(2) راتب السعود ، «الإنسان والبيئة : دراسة في التربية البيئية» ، دار الحامد ، عمـان ، الأردن ، ط 2 ، 2007م ، ص 20 .

الحياة البشرية . لقد أظهر المشاركون في مؤتمرات الأمم المتحدة للبيئة البشرية ، منذ مؤتمر ستوكهولم بالسويد عام 1972م ، وعياً بأن بقاء الجنس البشري ، أصبح محفوفاً بأخطار متزايدة ، بسبب تصرفات الإنسان الخاطئة في البيئة .

فلا أحد ينكر أن البيئة في زمننا المعاصر في أزمة ، خطيرة العواقب والآثار ، فمشكلات البيئة أصبحت تهدد الإنسان والحيوان والنبات؛ في الأرض والبحر. وتمثل الأمطار الحمضية، وتلوث المحيطات، وثقب الأوزون وتسرب الإشعاع النووي، وتلوث مصادر المياه، وتلوث الهواء، وتلوث الغذاء والدواء، والتلوث الإشعاعي، والتلوث الكيميائي، والتلوث النووي، وإحراق الغابات، ونقص الموارد الطبيعية، وارتفاع مستوى مياه البحر، وتزايد عنف الأعاصير، وارتفاع درجة حرارة الأرض، وزحف الصحراء، وزيادة نسبة ثاني أوكسيد الكربون في الهواء، وتراجع الأصناف الحيوانية البرية والبحرية. أهم ملامح الأزمة البيئية العالمية، التي تهدد كوكب الأرض بأكمله، ولا تقتصر علَىٰ منطقة جغرافية أو عمرانية معينة، وكلها ظواهر تعود إلَىٰ النشاط البشري غير الرشيد[1].

لقد غلا الإنسان المعاصر في استغلاله للطبيعة ؛ فبالرغم من ازدهار العلوم الطبيعية بمختلِف أنواعها وتقدم التقنية في خدمة الإنسان، فإن تأليه الرغبات أدَّىٰ إلَىٰ اغتصاب الإنسان للطبيعة، أي إلَىٰ استثمار الطبيعة وتطويع قواها، لإشباع الرغبات دون وازع أخلاقي، ودون معيار يعلو علَىٰ الطبيعة والرغبات معاً، ويخضعها لقيمه وأوزانه، فكان تلويث الموارد الطبيعية، ونهب الثروة الأرضية بلا حساب، مما أدَّىٰ بدوره إلَىٰ قلب توازن الطبيعة في كثير من الحقول»[2].

---

(1) وذلك مصداقاً لقوله تعالَىٰ : ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم : 41] .

(2) إسماعيل راجي الفاروقي ، «نحن والغرب» ، دار الزيتونة ، تونس ، ط 1 ، 1409هـ/ 1989م ، ص 13 ـ 14 .

وترجع أسباب هَـٰذَا الغلو في استغلال الطبيعة ، إلَىٰ علاقة الصراع والسيطرة بين الإنسان والبيئة ، التي ما لبثت تكرسها الفلسفات المادية السائدة ، منذ القرن التاسع عشر الميلادي ، والتي انشقت عن فكرة الجدل ، جدل الطبيعة وجدل الإنسان ، التي قال بها «هيجل» ، وطوَّرها من بعده «ماركس» .

إن القول بفكرة جدل الطبيعة وجدل الإنسان ، القائمة علَىٰ مبدأ الصراع ، وضَع الإنسان المعاصر بفلسفاته : الليبرالية ، الوجودية ، الماركسية ... في وضْع حرج ، فعملت هَـٰذِهِ الفلسفات علَىٰ إيجاد قنوات لتصريف هَـٰذَا الصراع ؛ فقالت بالصراع في جدل الطبيعة ، ونفت الصراع في جدل الإنسان ، فكان أن ساد مذهب الفصل بين الإنسان والطبيعة ، واعتبار كل ما يحيط بالإنسان خادماً للإنسان وموضوعاً له ، فتَمَّ النظر إلَىٰ الكون نظرة مادية عدائية ، تقتضي إخضاع الكون لبطش الإنسان ، وإحكام سيطرته عليه ، علَىٰ أساس أن الطبيعة آلة وجب تفكيكها ، فأصبح مبدأ الصراع هو الذي يحكم حركة الإنسان المادي في علاقته بكل ما يحيط به .

ونعتقد أن جذور ذلك الفصل القاضي بمبدأ الصراع ، الذي قامت علَىٰ أساسه الحضارة المعاصرة ، تعود إلَىٰ الفكرة اليونانية ، التي تعتبر أن الإنسان خارج عن الطبيعة ، وبسيادة ذلك المذهب ، واقترانه بمبدأ ندرة الخيرات الطبيعية وعجزها عن تلبية حاجات الإنسان ، ولد لدى الإنسان ضرورة التنافس للحد من تلك الندرة ، ولئن كان حقل هَـٰذَا التنافس هو البيئة الطبيعية ، مصدر كل الموارد ، فلا بد إذاً من السيطرة عليها ، ومن ثمَّ الدخول معها في صراع لتأمين إشباع تلك الحاجات .

وعلَىٰ هَـٰذَا الأساس ، فإن الحضارة المعاصرة ، مهَّدت ، منذ بداية خطواتها الأولى ، لإقامة علاقة مسيطر [الإنسان] بمسيطَرٍ عليه [بيئته الطبيعية] ، أو علاقة فاتح براضخ ، وذلك باعتمادها علَىٰ مستوى من التطور العلمي والتقني ؛ مما سمح للحضارة المعاصرة بأن تطوِّر بالدرجة الأولى آلتها العسكرية العتيقة ، إلَىٰ جانب التطور التقني الإنتاجي ،

الذي استعاضت بمقتضاه بالآلة عن الإنسان ، ومن ثَمَّ خففت عنه المشقة في ميادين شتَّىٰ ، مكَّنته بذلك من قطع أشواط عملاقة تجاه الغاية التي رسمها لعلاقته ببيئته ، وهو العامل الذي لـم يزده إلَّا غروراً بنفسه ، وافتتاناً بعقله ، فطفق يبدد الموارد الطبيعية المتجددة ، وغير المتجددة منها بشكل خاص ، عبر الإفراط في إنتاج الكمـاليات ووسائل الرعب والدمار ، متناسياً أنه بصنيعه ذاك ، لا يبدد ولا يدمر إلَّا نفسه ؛ لأن الإسراف في ذلك النوع من الإنتاج الذي لا يمتُّ لطلبات الإنسان المادية الأساسية بصلة ، والتكالب عليه لتكديس الأرباح ، ليس إلَّا تدميراً للبيئة مصدر عيشه ، والذي من أبرز مظاهره ، الجفاف والتصحُّر ، والتلوث الضوضائي ، والنفايات الصناعية والغازية ، والإشعاع والتغيرات الكيميائية ، وتلوث الهواء والمياه ، وثقب طبقة الأوزون التي تحمي البيئة من أذَىٰ الأشعة فوق البنفسجية ، وتسخين درجة حرارة الأرض . وإلَىٰ غير ذلك من التغييرات ، التي انعكست علَىٰ المناخ عموماً .

وإجمالاً ، «تُعـدُّ أزمة البيئة منطلقاً مناسباً ، لمحاولة فهم الكيفية التي استطاع بها تطور العلوم وتحول الأفكار ـ منذ قرون من الزمان ـ تجريد إنسان الحضارة المعاصرة من مركز ظل يتمتع به آلافاً من السنين ، تاركاً إياه يتيماً ، في مجتمع شهد إنجازات تكنولوجية وثراءً مادياً لم يسبق لهما مثيل» [1] .

وأمام هَـٰذَا الوضع ، تزايد شعور الإنسان المعاصر ، بخطورة الأزمة البيئية التي تهدد البشرية جمعاء ، ولا تَستثني في تهديدها أحداً ؛ الأمر الذي دفع العالم إلَىٰ عقد عِـدَّة مؤتمرات عالمية ، قصد تدارس سبل تجاوز هَـٰذِهِ الأزمة أو علَىٰ الأقل الحد من آثارها ؛ من تلك المؤتمرات (مؤتمر ستوكهولم 1972م ، وبلغراد 1975م ، وتيبلسي 1977م ، وموسكو 1987م ، وريودي جانيرو 1992م ، ودورة الجمعية العامة الاستثنائية المكرسة للبيئة

(1) جان ماري بيلب ، «عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة» ، ترجمة السيد محمَّد عثمان ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، ع 189 ، ربيع أول 1415هـ ، سبتمبر 1994م ، ص 21 .

بنيويورك 1997م ، ومؤتمر القمة العالمي للتنمية المستدامة بجوهانسبرغ 2002م ، ومؤتمر الأمم المتحدة للتنمية المستدامة بريو دي جانيرو 2012م ، بالإضافة إلَىٰ قمة المناخ العالمية الثالثة والعشرين ...) [1] . كمـا خصَّصت الأمم المتحدة يوم 5 يونيو من كل سنة ، يوماً عالمياً للاحتفاء بالبيئة ، وظهر في أوروبا تيار سياسي ، يُعرَف «بالخضر» يجعل من مهمته السياسية المطالبة بالمحافظة علَىٰ البيئة . وأكثر من هَـٰذَا ظهر علَىٰ المستوى المعرفي علم جديد Ecology ؛ أي علم التوازن الطبيعي ، يهدف ـ بدوره ـ إلَىٰ دراسة الظواهر البيئية للحد من الأزمة البيئية . لكن كل هَـٰذِهِ الجهود قد فشلت في وضع حد للتدهور البيئي العالمي ، والأزمة لا تزداد إلَّا استفحالاً ، وذلك لأن هَـٰذِهِ الجهود تؤطرها فلسفة مادية ، لا تلتفت إلَىٰ ما هو ديني وأخلاقي ، قصد الاسترشاد به .

فعلم التوازن الطبيعي ، اخترع ، «ووضع مقصداً آثمـاً لهَـٰذَا العلم البريء ؛ هو كيف يساعد الإنسان في استغلاله لقوى الطبيعة ، فالإنسان الغربي مُصِـرٌّ علَىٰ الاستغلال ، حَتَّىٰ للعلم الذي وضعه هو لحمايته من الاستغلال .

من هنا ، فإن حل مشكل تلوث البيئة المستشري ، لا يَتأَتَّىٰ باتباع المنادين بالرجوع إلَىٰ الطبيعة بوصفها الدين الطبيعي ، ولن يَتأَتَّىٰ بالتهويم في الرومانسية التي يُروِّجُ لها ساسة الخضر ؛ رومانسية الطبيعة الخضراء ، ذلك أن العواقب الوخيمة لتجاهل وجود

(1) ولقد فشلت هَـٰذه المؤتمرات في بلورة ميثاق للأرض يحظى باتفاق جميع الدول ؛ مثل ميثاق الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ، فبعد أن «تحلى مؤتمر ستوكهولم عام 1972م بنزوع إنساني إذ وجه رؤساء 24 دولة نداءً بعنوان «بلدنا الكوكب كله» ، وأعلنوا أن بلادهم مستعدة لأن تتخلى عن جزء من سيادتها من أجل خير الإنسانية جمعاء» ما لبث أن غلبت دول الغرب وفي مقدمتها : الولايات المتحدة الأمريكية ـ التي رفضت التوقيع علَىٰ إتفاقية مؤتمر رودي جانيرو 1992م ـ الجانب الاقتصادي عن المشترك الإنساني في مؤتمر ريو ، فقد كان الهدف الرئيسي من المؤتمر هو المزاوجة بين عملية البيئة والتنمية ، كمـا التزم المؤتمر بأن يقيم نظاماً قانونياً مخصصاً لإيقاف بث الغاز ، الذي يسبب تسخين المناخ ومنع انخفاض عدد الأنواع الحية . ولكن النتائج لـم تكن علَىٰ مستوىٰ الطموحات ، فقد انتهى المؤتمر إلَىٰ اتفاق ركيك حول التغييرات المناخية ، واتفاق حول التنوع الحيوي يضعفه غياب توقيع الولايات المتحدة الأمريكية .

اللَّـهِ ، أخطر ما يتهدد البيئة ، ولا يدفع هَـٰذَا الخطر عنها تأليه البعض لها ، والتغني بحبها وقداستها . إن ضآلة الفلسفة التي تمخضت عنها كوارث البيئة وخيمة العواقب ، ليس فلسفة جديدة للطبيعة ، بقدر ما هي فلسفة جديدة للتكنولوجيا [1] .

وحدة الإنسان والكون في الإسلام :

ترجع أصول هَـٰذِهِ العلاقة التكاملية بين الإنسان والطبيعة إلَىٰ وحدة الإنسان والكون، ومن مظاهر تلك الوحدة، وحدة الخالق والمصير فكٌّ منهما، ناشئٌ من العدم بالإرادة الإلهية، قال عَزَّ وجَلَّ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾[2]، وكذلك كل منهما يتحرك إلَىٰ نهاية محتومة ، وهي الرجوع إلَى اللَّـهِ والمصير إليه ، قال تَعالَىٰ : ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾[3]، وفيما بين (وحدة الخالق ووحدة المصير) يشترك الإنسان والكون في عناصر التكوين، «فليس الإنسان علَىٰ ما يبدو من مفارقته للجمادات، إلَّا ناشئاً مثلها من تراب»[4]، قال عَزَّ وجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾[5]، «فمَن الأرض خلق الإنسانَ إذاً، وإليها سوف يعود، ليبعث منها تارة أخرىٰ: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾[6]، وفيما بين صرخة الحياة وحشرجة الممات الأخيرة علَىٰ الأرض عيشه، قال عَزَّ وجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾[7]، وفيها هو مُستخلَف، قال سُبْحانَهُ: ﴿هُوَ

(1) مراد هوفمان ، الإسلام كبديل ، ترجمة غريب محمَّد غريب ، قسم الترجمة ، مؤسسة بافاريا ، بيروت ، ط 1 ، 1993م ، ص 164 .

(2) سورة السجدة ، جزء من الآية : (4) .

(3) سورة المائدة ، الآية : (18) .

(4) عبد المجيد النجار ، «خلافة الإنسان بين الوحي والعقل» : بحث في جدلية النص والعقل والواقع ، دار الغرب الإسلامي ، ط 1 ، 1407هـ/ 1987م ، ص 39 بتصرف يسير .

(5) سورة الحج ، جزء من الآية : (5) .

(6) سورة طه ، الآية : (55) .

(7) سورة الملك ، جزء من الآية : (15) .

ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[1]، ويشترك الإنسان والكون في الغاية من الخلق والوجود، المتمثلة في عبادة اللَّـهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[2]، وقال تَعالَىٰ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[3]، وقال تَعالَىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[4].

ولئن اشترك كل من الإنسان والبيئة في العبادة، فإن هَـٰذِهِ الأخيرة لا تزيغ في عبادتها عن الطريقة التي رسمها لها اللَّـهُ سُبْحانَهُ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾[5] خلافاً للكائن البشري، المسؤول عن اختياراته، بما منحه اللَّـهُ من عقل وحرية اختيار ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾[6].

التناغم والوفاق مع الطبيعة والعالم والكون في الإسلام:

إن الإسلام في تصوره للعلاقة بين الإنسان والبيئة يرسم خطاً جديداً؛ يقوم علَىٰ الوئام والانسجام، والتكامل والوفاق، والتجانس والالتحام، بين الإنسان والطبيعة، فما دامت قوى الطبيعة وطاقاتها قد سُخِّرَت أساساً لخدمة الإنسان، ومساعدته علَىٰ الرقي الحضاري، وإعمار العالم، فإن العلاقة بينهما ليست ـ بالضرورة ـ علاقة قتال، وصراع، وغزو، وبغضاء. إنما علاقة انسجام، وتقابل، وتواصل، وتعاون، وتكامل، وكشف وتنقيب. إنها علاقة الخادم المطيع بالسيد القدير. إنه في هَـٰذِهِ الحالة لا يصطرع مع خادمه، أو يستفزه أو يرفع السلاح في وجهه. إنما يستخدمه بحصافة وذكاء، لتأدية واجباته جميعاً، في أجواء تسودها علائق الطاعة والمحبة والإبداع.

---

(1) سورة فاطر، جزء من الآية: (39).
(2) سورة الذاريات، الآية: (56).
(3) سورة الجمعة، جزء من الآية: (1).
(4) سورة الإسراء، جزء من الآية: (44).
(5) سورة فصلت، الآية: (11).
(6) سورة الإنسان، الآية: (3).

الإسلام وحمايـة البيئـة :

لئن كانت البيئة هي: النظام العام الطبيعي الذي يشتمل التربة والأشجار، والأنهار، والجبال، والحيوانات. وبمـا أن هَـٰذِهِ البيئة قد سخرها اللَّـهُ للإنسان وسهَّلها له، فقد حمله مسؤولية صيانتها وحمايتها، للحفاظ علَىٰ حياته، ولتستفيد الأجيال القادمة من خيراتها.

وقد سَـنَّ الإسلام قرآناً وسُـنَّة تشريعات عديدة للمحافظة علَىٰ البيئة، تمثل بحق استراتيجية عملية ناجعة، لتجاوز الأزمة البيئية العالمية، ويمكن رصد خطوات هَـٰذِهِ الاستراتيجية فيما يلي:

* **الدعوة إلَىٰ ترشيد استغلال الثروة البيئية:** وعدم الإسراف في استعمالها، ومن ثَمَّ استنزاف الموارد الطبيعية وتبديدها، قال تَعالَىٰ: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾[1]، وقال عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾[2].

* **ترشيد الانتفاع بالثروة المائية:** عن طريق النهي عن الإسراف في الماء، فقد ورد في الشرع الإسلامي النهي عن الإسراف في استعمال الماء، وذلك في حديث عبد اللَّـهِ بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ مَرَّ بسَعدٍ وهو يَتوضَّأُ، فقال: «**مَا هَـٰذَا السَّـرَفُ؟**»، فقَالَ: أَفِي الوُضُوءِ إسْـرافٌ؟، قَالَ: «**نَعَم، وإِنْ كُنْتَ عَلَىٰ نَهْـرٍ جَـارٍ**»[3].

* **التحذير من تلويث المياه:** وذلك بالنهي عن التبول والتبرز فيه. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ قَالَ: «**لَا يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي المَـاءِ الدَّائِمِ، ثُمَّ يَغْتَسِلُ فِيهِ**»[4]، وفعل ذلك يستوجب لعنة اللَّـهِ للإنسان، وطرده من رحمته، فعن مُعاذِ بن جبل أن النَّبيَّ ﷺ

(1) سورة البقرة ، جزء من الآية : (60) .

(2) سورة الشعراء ، الآيتان : (151-152) .

(3) «مسند أحمد» ، أول مسند عبد اللَّـه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، رقم الحديث 7025 .

(4) «صحيح مسلم» ، كتاب الطهارة ، باب النهي عن البول في الماء الراكد ، رقم الحديث 282 .

قال : «**اتَّقُوا المَلَاعِنَ الثَّلاثَـة : البُرَاز في المَوَارِد ، وقَارِعَةِ الطَّرِيقِ ، والظِلِّ**» [1] ، ولنا تَصور عاقبة من يجرؤ علَىٰ تلويث حياة البحار والمحيطات بالنفايات النووية وغيرها ، قياساً علَىٰ السابق .

* **ترشيد استخدام الثروة الغابوية** : بالتشجيع علَىٰ الغرس لِـما يسهم به في حفظ الأرض من التعرية ، وتوفير القدر الكافي من الأوكسجين الأساسي لاستمرار الحياة . فعن عبد اللَّـهِ بن وهب ﷺ قال : قال رسول اللَّـهِ ﷺ : «**مَن نَصَبَ شَجَرَةً فَصَبَرَ علَىٰ حِفْظِها ، والقِـيَام عَلَيْهَا حَتَّىٰ تُثْمِرَ ، كَانَ لَهَ في كُلِّ شَيءٍ يُصَابُ به ثَمَرُها صَدَقَةً عِنْدَ اللَّـهِ عزَّ وجلَّ**» [2] ، وما أبلغ قوله ﷺ : «**إِنْ قَامَت السَّاعَةُ وبِيَـدِ أَحَدِكُم فَسِيلَةٌ فإِنْ اسْتَطَاعَ أَلَّا يَقُومَ حَتَّىٰ يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَل**» [3] ، وهَـٰذِهِ دلالة علَىٰ أهمية الغرس بالنسبة للبيئة كلها ، ولاسيما التربة ، والإنسان ، والحيوان . ومن ثَم نفهم الوعيد الشديد الذي توعد به النَّبيُّ ﷺ قاطع النبات بغير حق ، وإن تعلق الأمر بسدرة لا تثمر ؛ إذ قال ﷺ : «**مَن قَطَعَ سِـدْرَةً ، صَوَّبَ اللَّـهُ رَأْسَـهُ في النَّارِ**» [4] .

* **ترشيد استخدام الطاقة بكل أنواعها** : وذلك بحسن تدبيرها واستغلالها في أوجهها المشروعة ؛ لأنها من قبيل الملك المشترك بين الناس قال ﷺ: «**المُسْلِمُونَ شُركَاء في ثَلَاث : في المَاءِ ، والكَلَأِ، والنَّارِ**»[5] ، فالنار ـ هنا ـ يُراد بها مصادر الطاقة المختلفة التي توصل إليها الإنسان ، والتي لـم يتوصل إليها بعد، والناس شركاء فيها عملاً بالحديث الشريف، ولاشك في أن هَـٰذَا التوجيه النبوي بجعله للطاقة من المشترك الإنساني، يشكل أساساً متيناً لمعالجة أزمة الطاقة، والتي تُؤدِّي إلَىٰ صراعات إقليمية ودولية، قد تصل إلَىٰ العالمية ما لـم يتم الأخذ بالتصور الإسلامي أعلاه.

---

(1) «سُنن أبي داود ، كتاب الطهارة ، باب المواضع التي نهىٰ النَّبيُّ ﷺ عن البول فيها ، رقم الحديث 26 .
(2) «مُسند أحمد» ، حديث : مَن شَهد النَّبيَّ ﷺ ، رقم الحديث 16150 .
(3) «مُسند أحمد» ، مسند أنس بن مالك ﷺ ، رقم الحديث 12569 .
(4) «سُنن أبي داود» ، كتاب الأدب ، باب في قطع السدر ، رقم الحديث 5239 .
(5) «سُنن أبي داود» ، كتاب الإجارة ، باب في منع الماء ، رقم الحديث 3477 .

* «**النهي عن الفساد في الأرض**: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾[1]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾[2]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾[3]، والفساد المنهي عنه في هَـٰذِهِ الآيات وغيرها عام، يندرج تحته الأعمال المضرة بالبيئة والثروة الحيوانية، كاستئصال الغابات، وإتلاف المزروعات، وتسميم المياه، بما يؤدي إلىٰ القضاء علىٰ الثروة الحيوانية فيها، ونحو ذلك من التصرفات المدمرة والمضرة، ومما يشهد لشمول الفساد المنهي عنه في الآيات لمثل هَـٰذِهِ التصرفات، ليشمل هَـٰذَا النهي علاوة علىٰ عموم الفساد في الأرض مكوناتها من حرث ونسل، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾[4].

* **توعَّدَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ المفسدين بالخسران في الدنيا**: وبسوء القرار في الآخرة ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾[5].

ومما يؤكد علىٰ حماية الإسلام للبيئة أنه دعا إلىٰ احترام حيوانات البيئة ونباتها، حَتَّىٰ في أوقات الأزمات والحروب. تدل علىٰ ذلك وصية الرسول ﷺ لأصحابه في إحدى غزواته؛ إذ قال ﷺ، وهو يتأهب للرحيل: «**لاَ تَقْتُلُنَّ امرَأَةً، وَلاَ صَغِيراً رَضِيعاً، ولاَ كَبِيراً فَانِياً، ولاَ تَحْرِقُنَّ نَخلَةً، ولاَ تَقْلَعُنَّ شَجَراً، ولاَ تَهْدِمُوا بُيُوتاً**»[6].

---

(1) سورة الأعراف، جزء من الآية: (74).
(2) سورة البقرة، الآيتان: (11-12).
(3) سورة القصص، جزء من الآية: (77).
(4) سورة البقرة، الآيتان: (204-205).
(5) سورة الرعد، الآية: (25).
(6) «صحيح مسلم»، كتاب الجهاد، باب كره قتل النساء والصبيان، رقم الحديث 1364.

وعلَىٰ هَـٰذَا التوجه، سار أصحاب الرسول ﷺ، تدل علَىٰ ذلك وصية أبي بكر الصديق لجيشه؛ حيث نهى عن قطع الأشجار وحرقها، وهدم البنايات، وقتل الحيوانات؛ فعن يحيى بن سعيد، أن أبا بكر الصديق بعث يزيد بن أبي سفيان علَىٰ رأس جيش إلَىٰ الشام، فأوصاه قائلاً: «... ولا تقطعن شجَراً مُثْمِراً، ولا تخربن عَامراً، ولا تَعْقرَنَّ شَاةً، ولا بَعيراً إلَّا لمأكَلةٍ، ولا تحرقنَّ نَخلاً»[1].

وعموماً، فإن القرآن الكريم والسُّـنَّة النبوية الشَّـريفة، يزخران بدعاوَىٰ الحفاظ علَىٰ البيئة ومكوناتها الحية وغير الحية، انطلاقاً من الإنسان والحيوان والنبات، وصولاً إلَىٰ الماء والهواء والأرض، التي تهدف في اعتقادنا إلَىٰ تعزيز رؤية الإسلام لعلاقة الإنسان بالبيئة ـ التي تقوم علَىٰ الوفاق والتكامل بدل الصراع والتنافر ـ الرؤية نحو التسديد في استخدام مختلف الموارد الطبيعية، عبر الزمان والمكان، ومن ثَمَّ حماية حقوق الأجيال المقبلة في التمتع بتلك الخيرات، التي تندرج في إطار دعوة أشمل إلَىٰ نبذ الإسراف والتبذير، علَىٰ مستوى الاستهلاك من المأكل والمشرب، مصداقاً لقوله تَعالَىٰ: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾[2]، وكذا إلَىٰ ترشيد استخدام الموارد الطبيعية، وعدم استنزافها وتبديدها.

الإسلام وعلاقة الوفاق بين الإنسان والبيئة:

علَىٰ ضوء ما تقدم ، حيث أضحى خالق كل من الإنسان والبيئة في الأصل واحداً هو اللَّـهِ ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾[3]، وغايتهما واحدة، وهي العبادة ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[4] والكائن البشري غير منفصل عن

(1) «موطأ مالك» ، كتاب الجهاد ، باب النهي عن قتل النساء والولدان في الغزو ، رقم الحديث 965 .
(2) سورة الأعراف ، جزء من الآية : (31) .
(3) سورة السجدة ، الآية : (7) .
(4) سورة الرعد ، جزء من الآية : (15) .

البيئة ، فهو عنصر مميز من عناصرها المسخرة له، ومكون فريد من مكوناتها، علىٰ ضوء كل ذلك إذاً، فإن «علاقة الإنسان ببيئته الطبيعية، لا تتحول إلىٰ مسيطِر بمسيطَر عليه، أو علاقة مالك بمملوك، إنما علاقة أمين استُؤمن عليها»[1]، بكل ما يعنيه ذلك من وفاق وانسجام وتكامل معها، إذ «ليست الطبيعة شراً، كما ادعت المسيحيةُ، بل هي خيرٌ، فالشر لا يكمن فيها، بل في استعمالها، لذلك بارك اللَّـهُ لنا فيها، وأوصانا بعدم الغلو فيها، وهَـٰذِهِ هي فَحوَىٰ الروحانية: لا أن يتجرد الإنسان من المادة، بل أن يطلبها ضمن قوانين وحدود مستمدة من ملكوت القيم، فليست السعادة الإسلامية سعادة إشباع رغبات، بل سعادة تحقيق الذات كلها من رغبة طبيعية، وشوق روحي، ولا تنهب الطبيعة، وتغتصب في سبيلها، لأن اللَّـهَ هو خالقها وسيدها، وهو سخرها لنا ضمن حدود القيم، فلا سيطرة للإنسان علىٰ الطبيعة، ولا تنافس عليها مع أخيه الإنسان، إنما استثمار للطبيعة، بتعاون الإنسان مع أخيه الإنسان، وبالتواصي والتآخي والمعروف»[2].

إن هَـٰذَا السبيل، هو الكفيل وحده للاستمرار في التمتع بالخيرات الطبيعية، عبر الزمان والمكان، ومن ثم بضمان البقاء، والاستمرار للجنس البشري، بمختلِف أجياله الحاضرة والمقبلة. ولأن هَـٰذَا المنهج أضحت في إطاره الأمانة جزءاً من المؤتمن، فهو الأقدر بذلك علىٰ تجاوز ما رسخته حضارة الصراع والسيطرة، فيما بين الإنسان وبيئته، وما أفرزته من اضطراب وحيرة وخوف.

إن خلق الصراع بين الإنسان والبيئة نظرة غير سليمة، وهي مهما وضعت في أطر فلسفات شاملة ، تبدو للوهلة الأولى منطقية ومبررة ، فإننا بمجرد التوغل في دقائقها ومنحنياتها ، سنعثر علىٰ منطق الصراع الذي تنبني عليه معطياتها ، كما أن التصور الإسلامي (في علاقة الإنسان بالطبيعة) علىٰ العكس من هَـٰذَا كله ، يمنحنا معادلة حيوية ومنطقية لا خلل فيها ولا اضطراب ، إننا ما دمنا قد خُلقنا وفق هَـٰذِهِ الصيغة ، التي

(1) باقر الصدر ، «التفسير الموضوعي للقرآن» ، دار التوجيه الإسلامي ، بيروت ، ط 2 ، 1980م ، ص 103 .
(2) مرجع سابق ، «نحن والغرب» ، ص 17 .

تشتبك فيها قوى الروح والمادة ، فإن لنا أن ننطلق في نشاطاتنا وممارساتنا من نقطة التوازن ، التي لا تجنح ولا تنحرف ولا تميل ، التوازن الذي ينتفي فيه الصراع ، ويتحول الجهد الإنساني الدائم إلَىٰ سعي خلَّاق ، من أجل التوحد والتكامل والانسجام ، وإنه ما دامت قوى العالم ـ من جهة أخرى ـ قد سُخرت لمهمتنا الأرضية تسخيراً ، فإن علاقتنا بها ليست أبداً علاقة صراع وتناقض واقتتال ، إنمـا هي محاولة الكشف والتنقيب والاندماج ، للوصول إلَىٰ أكبر قدر ممكن من التفاهم بين الإنسان وبين العالم ، بعد الكشف عن سننه ونواميسه الطبيعية .

البيئة ومبدأ الاستخلاف :

لقد خلق اللَّـهِ عَزَّ وجَلَّ هَـٰذَا الكون لهدف وغاية، ولم يخلقه سبحانه عبثاً ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾[1]، والكون والإنسان يشتركان في الغاية من الخلق والوجود، والمتمثلة في عبادة اللَّـهِ وحده، دون الإشراك به، قال تَعالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[2]، وقال سُبْحانَهُ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[3]، ولتحقيق هَـٰذِهِ الغاية علَىٰ أكمل وجه، ويحصل الانقياد التام للَّـه عَزَّ وجَلَّ، جعل سُبْحانَهُ الإنسان خليفته في الأرض والكون، وهَـٰذِهِ الخلافة هي «خلافة رعاية وإعمـار، وإدارة وتسخير، أصبحت بها الخلائق والكائنات بإمرة الإنسان، وأصبح الإنسان قائمـاً بها في موضع الوصاية والنيابة عن اللَّـهِ في التصرف في الكون، وفي الأرض، وفي الخلائق، والكائنات»[4]؛ «وهَـٰذَا معناه أن يكون الإنسان سلطاناً في الكون بغاية

(1) سورة الدخان ، الآيتان : (38-39) .
(2) سورة الذاريات ، : (56) .
(3) سورة الجمعة ، حزء من الآية : (1) .
(4) عبد الحميد أبو سليمان ، «أزمة العقل المسلم» ، مرجع سابق ، ص 129 .

تطبيق المهمة التي كلفه بها المُستَخلِفُ ـ اللَّـهُ ـ ائتماراً بمـا أمر وانتهاء عمَّـا نَهىٰ»[1].

وهو ما تعنيه آيات التنزيل التي ورد فيها مفهوم الاستخلاف، باعتباره من أسمَىٰ وظائف الإنسان الوجودية، منها، قوله تَعالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[2]، وقوله تَعالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[3]، وقوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[4]، وقوله سُبْحانَهُ: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾[5].

إن الاستخلاف بهَـٰذَا المعنى مركز شرعي، قائم علَىٰ التفويض والتكليف المقيد والمنضبط؛ تفويض للإنسان بخلافته في الأرض أو البيئة المسخرة، وتكليف له بإعمارها وتسخير ما فيها؛ ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[6]، كمـا تعني أن ترسيم العلاقة بين الإنسان المستخلف، والبيئة المستخلف فيها، محدد أيضاً ضمن وظائف مهمة الخلافة. وبمقتضى هَـٰذَا التقرير، تبرز أهمية البيئة في إنجاز مهمة الخلافة الإنسانية، وإنجاح متطلباتها، بمـا هي مسرح هَـٰذَا الاختبار، ومحضن الأمانة الاختيارية «الخلافة» ووعاؤها[7]، فكان من مقتضيات هَـٰذَا المبدأ، وجوب المحافظة علَىٰ البيئة، وعدم إلحاق الضرر بها.

---

(1) انظر في تفسير هَـٰذه الآية، «تفسير أبي السعود»، و«تفسير التحرير والتنوير» لابن عاشور، وقد اعترض بعض المفسرين أن يكون المعنىٰ المراد؛ الخلافة عن اللَّـه، لـما يؤدي إليه ذلك من معنى النيابة التي تخل بالكمـال الإلهي، وذهبوا في تفسيرها مذاهب مختلفة، انظر في ذلك: البهي الخولي، «آدم عليه السلام»، ص 123 وما بعدها، عبد المجيد النجار، «خلافة الإنسان بين الوحي والعقل»، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1407هـ/ 1987م، هامش رقم 01، ص 48.

(2) سورة البقرة، جزء من الآية: (30).

(3) سورة فاطر، جزء من الآية: (39).

(4) سورة يونس، جزء من الآية: (14).

(5) سورة النمل، جزء من الآية: (62).

(6) سورة هود، جزء من الآية: (61).

(7) جمال الدين ناسك، «النظرية البيئية الإسلامية»، دار نشر المعرفة، الرباط، ط 1، 2019م، ص 117.

فلسفة التسخير :

إن حقيقة وحدة الإنسان والكون ، تقتضي حقيقة أخرىٰ ، هي تسخير الكون للإنسان ؛ فالخالق جلَّ شأنه أبدع الكون ، وسخَّر كلَّ موجوداته لخدمة الإنسان ، مما يمكِّن الإنسانَ من القيام بمهمته الاستخلافية في الأرض ، علىٰ أكمل وجه .

وهٰذا ما تضافرت العديد من الآيات القرآنية علىٰ تأكيده ، منها قوله تعالىٰ : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[1] ، وقوله سُبْحانَهُ : ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾[2] ، وقال عَزَّ وجَلَّ : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[3] ، وقال عَزَّ وجَلَّ : ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[4] .

وهٰذا ما انتظمت آيات قرآنية عديدة في إثباته وتأكيده ، منها قوله تعالىٰ : ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ ﴾[5] ، فاللَّـهُ عَزَّ وجَلَّ قد سخر للإنسان كل ما في السماوات والأرض ، والبحر والبر ، قال سُبْحانَهُ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾ ﴾[6] ، وقال تعالىٰ : ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ

(1) سورة الجاثية ، الآية : (13) .
(2) سورة لقمان ، جزء من الآية : (20) .
(3) سورة النحل ، الآية : (12) .
(4) سورة العنكبوت ، الآية : (61) .
(5) سورة لقمان ، جزء من الآية : (20) .
(6) سورة إبراهيم ، الآيات : (32–34) .

لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾ [1] .

الواقع أن الآيات الخاصة بمسألة التسخير المتوازن المناسب ، هَـٰذَا ، منبثة في مواضع من القرآن كثيرة ، لا تُعد ولا تحصىٰ ، جميعها تؤكد أنه أريد للعالم ، تبعاً لآيات التسخير ، أن يكون صالحاً لاستقبال الإنسان ، مناسباً لقدراته الخاصة ، مستجيباً بقدرٍ لمطامحه وأهدافه . «لقد هُيئت أرضية العالم لكي تحرث وتزرع ، ويكون الحصاد . وبانتظار العقل الذي سيفكر ، واليد التي ستنفذ ، والإرادة التي ستشد بين رؤية العقل وقدرة اليد ، فإن العالم سيشكل وفق صيغ ومعادلات ، تمكن القادم الجديد من أداء دوره الحضاري المرسوم» [2] .

تلك هي فلسفة التسخير في التصور القرآني ، «والإيمان بتسخير الكون للإنسان ، يرفع به إلَىٰ اقتحام الكون فعلاً لاستثمار مرافقه ، إذ يؤمن بأنه منفتح له مهيأ للعطاء ، فيمتلئ ثقةً واطمئناناً بإيجابية المردود . وينتفي من نفسه كل شعور باليأس والخوف ، وهو ما وصفه اللَّـهِ تعالى في قوله : ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [3] .

ختاماً ، إن للإسلام في مجال المحافظة علَىٰ البيئة وحمايتها من كل أشكال الاعتداء عليها ؛ إسهامات معتبرة . وهو ما انتهت إليه مؤسسة «ويلتن بارك» التي تنظم كل سنة

(1) سورة الحج ، الآية : (65) .

(2) عماد الدين خليل ، «حول تشكيل العقل المسلم» ، الدار العالمية للكتاب الإسلامي ، 1995م ، ص 113 .

(3) سورة الزخرف ، الآيات : (10-14) .

مرجع سابق ، «خلافة الإنسان بين الوحي والعقل» ، بتصرف ، ص 43 .

إطاراً للعمل حول مسائل عملية، إذ أعلنت أنه يمكن للحوار بين الأديان وبخاصة مع الإسلام، أن يستجلي حلولاً علمية؛ تهم الرعاية الصحية، والزراعة، والهندسة، والبيئة، وانتهت أيضاً إلَىٰ تدابير عملية لتقادي الزيغ الذي أدت إليه النظرة العلموية الصرفة، من سوء تدبير الموارد، وإخلال بتوازن البيئة، ونادت بمزج البعد الوظيفي والروحي في السكن مثلاً. وقد استلهمت البعد الروحي للإسلام كترياق للنظرة المادية المحض، التي أحالت الإنسان إلَىٰ مستهلك ينزع إلَىٰ اللذة مع ما يترتب عن ذلك من مآسٍ أخلاقية، ذلك أن البعد الروحي ليس ترفاً، ولكنه أحد عوامل التوازن الفردي والمجتمعي، ثم اعتمدت مفهوم الاستخلاف الوارد في القرآن الكريم والمسؤولية التي حملها الإنسان في استعمار الأرض للقيام بالعمل الصالح.

وإجمالاً، فإن الطرح الإسلامي البيئي، وبفضل توجيهاته العملية ـ وإذا ما حسن تقديمه ـ يمكن أن يسهم في دعم الوعي البيئي المتزايد لدى الرأي العام العالمي، مما يُمكِّنُ من إيجاد حلول عملية للأزمة البيئية المعاصرة.

قائمة المصادر والمراجع

(1) راتب السعود ، «**الإنسان والبيئة : دراسة في التربية البيئية**» ، دار الحامد ، عمان ، الأردن ، ط 2، 2007م .

(2) إسماعيل راجي الفاروقي ، «**نحن والغرب**» ، دار الزيتونة ، تونس ، ط 1 ، 1409هـ/ 1989م .

(3) باقر الصدر ، «**التفسير الموضوعي للقرآن**» ، دار التوجيه الإسلامي ، بيروت ، ط 2 ، 1980م .

(4) جان ماري بيلب ، «**عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة**» ، ترجمة السيد محمد عثمان ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، ع 189 ، ربيع أول 1415هـ ، سبتمبر 1994م .

(5) جمال الدين ناسك ، «**النظرية البيئية الإسلامية**» ، دار نشر المعرفة ، الرباط ، ط 1 ، 2019م .

(6) «**سُنن أبي داود**» ، طبعة دار الجيل ، بيروت ، 1988م .

(7) «**صحيح مسلم**» ، دار المعرفة ، بيروت ، ط 2 ، 1995م .

(8) عبد الحميد أبو سليمان ، «**أزمة العقل المسلم**» ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، د.ت .

(9) عبد المجيد النجار ، «**خلافة الإنسان بين الوحي والعقل : بحث في جدلية النص والعقل والواقع**»، دار الغرب الإسلامي ، ط 1 ، 1407هـ/ 1987م .

(10) عماد الدين خليل ، «**حول تشكيل العقل المسلم**» ، الدار العالمية للكتاب الإسلامي ، 1995م .

(11) محمد فتوحي ، «**المشكلات البيئية الكبرى في المغرب ودور التربية في مواجهتها**» ، مجلة آفاق تربوية ، البيضاء ، ع 7 ، 1993م .

(12) مراد هوفمان ، «**الإسلام كبديل**» ، ترجمة غريب محمد غريب ، قسم الترجمة ، مؤسسة بافاريا ، بيروت ، ط 1 ، 1993م .

(13) «**مسند أحمد**» ، وبهامشه «**كنزل العُمَّال**» ، طبعة المكتب الإسلامي ، ودار صادر ، بيروت ، د.ت .

(14) «**موطأ مالك**» ، تحقيق : فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، 1985م .